محكم

الإسلام وآفاق الاستثمار في السوق الرمزية:

من المحاكاة إلى التلقي

عمار بنحمودة

باحث تونسي

قسم الدراسات الدينية

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات و الأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

ملخّص البحث:

تسعى هذه المقاربة إلى طرح إشكاليّة تسويق الإسلام في عصرنا من منظور الاقتصاد الرمزي الذي أقره بيير بورديو (Pierre Bourdieu). وتنطلق من الأعمال التي حاولت دراسة المقدّس وتفكيكه، ليصير مفهوماً إنسانياً قابلاً للتنزيل ضمن البنى الاجتماعية وبحسب آفاق انتظار الإنسانية، فيكون التلقّي سبيل الأديان إلى الرواج.

وهي دراسة تحاول تشخيص أهمّ عوائق تسويق الإسلام في السوق الرمزيّة من خلال رصد مظاهر الانغلاق وهيمنة أشكال التديّن القديمة التي تحوّلت فيها الطقوس إلى ممارسات شكلانيّة مفرغة من المحتوى الروحي والمضمون القيمي، وتتعمّق في تفكيك المنظومة اللاهوتيّة القديمة التي تمزّقها الصراعات الطائفيّة، ويتولّى زمام الأمر الدينيّ فيها أئمّة ودعاة فقدوا كلّ أشكال التواصل الحديث مع جماهيرهم، فسيطرت صورتهم النمطيّة على المنابر وشاشات القنوات الدينية، ونفّروا بدل أن ينشروا الدين، بل كانوا مسؤولين عن تأجيج الصراعات الطائفية والخلافات المذهبية؛ فقد ظلّوا غارقين في مشاكل الماضي غير عابئين برهانات الحاضر والمستقبل.

ولا تكتفي الدراسة بمجرّد تشخيص للداء، وإنّما تحاول تقديم تصوّر للحلول الممكنة التي تتيح للإسلام أن يخرج من طور "السمعة السيئة" التي قضت بكساد بضاعته إلى إسلام تحت الطلب يستجيب إلى حاجات المستهلك الرمزي ويلبّي آفاق انتظاره.

1- مدخل نظري: الاقتصاد الرمزي

عرف الفكر الإنساني المعاصر تصوّرات مختلفة حاولت مقاربة المقدّس عامة والفكر الديني خاصة، وكانت خلاصة تلك الجهود محاولة فهم الظاهرة وإنزالها من برجها العاجي الذي تعالت به منتسبة إلى عالم السماء، وتفكيك آليات التأثير التي مارستها في علاقتها بالمتديّنين، حتى انتهت كثير من الأبحاث إلى رصد المقدّس في تجلياته، وربطت بينه وبين البنى الاجتماعية والواقع التاريخي الذي نشأت فيه، وحاولت تفسير تلك الآليات بمعايير عقلانية وأخرى غير عقلانية، ولكنْ ظلت قوّة المقدّس غير كامنة في ذاته، وإنّما في اعتقاد الناس فيه، وهو ما جعل المتلقّي عامّة والمتديّن خاصّة محور ذلك العالم، بعد أن كان المقدّس مسرحاً للكائنات الغيبية والعوالم الخارقة التي يختلط فيها الوعي الديني بسلفه الأسطوري. وفي هذا السياق، أكّد "دوركهايم" (Émile Durkheim) أنّ التديّن ظاهرة إنسانية طبيعية يمكن أن تتخذ أشكالاً متنوعة، ويؤكد أنه لا يوجد في الحقيقة دين خاطئ، وقد استطاع أن يقسّم الظواهر الدينية إلى نوعين: الاعتقادات والطقوس، فأمّا الاعتقادات فتفسّر طبيعة الدين المقدسة، وأمّا الطقوس فتفرض القواعد التي ينتهجها المؤمن إزاء المقدس، ويظل المجتمع حسب "دوركهايم" هو السبب الحقيقي للاعتقادات، واعتبر أنّ من وظائف الحياة الدينية أنها تجعل الإنسان يعيش حياة متميزة عن الحياة الفردية.[1] وتبدو قيمة هذه المقاربة في كونها فتحت الباب لأنسنة الدين وإنزاله من برجه العاجي، ليصير مادة اجتماعية قابلة للدرس من خلال الوعي بعلاقة الإنسان بمنظومة المقدس التي يحتمي بها ويخاف منها.

أمّا "ماكس فيبر" (Max Weber)، فيعتبر أنّ الإله يمثل المحور الرمزي الذي يتكون حوله الاجتماع البشري، واعتبر أنّ الآلهة يحملون سمات إنسانية، فاستطاع أن ينبّه على وجود علاقة بين العابد والمعبود جعلت البيئة بدورها تتدخّل في تصوير الإله وتصوّره؛ فالإله الواحد الخالق من عدم نشأ في بيئة صحراوية جافة تنبع فيها الحياة من العدم، وبالتالي فهو محاكاة للوجود وتصوّر مستمد من الواقع.[2] ولعل أعمق القراءات حفراً في مفهوم التدين هي تلك التي قدمها بيير "بورديو" (Pierre Bourdieu) عملاً بالإرث الماركسي باعتباره الدين سوقاً، واستطاع أن يربط بين القسمة التي قدّمتها الإيديولوجيا الدينية والانقسامات الاجتماعية إلى مجموعات وطبقات متصارعة، يعتبر "بورديو" أنّ كلّ الطاقات التي توظّف في عمليات التنافس الاجتماعي تُعَدّ رأس مال. ويميز بين أشكال متعددة من رأس المال؛ فبالإضافة إلى رأس المال الاقتصادي هناك رأس المال الثقافي، ويقسّمه "بورديو" إلى نوعين: أحدهما موروث، وهو كل ما يناله الفرد خلال عملية

[1]- انظر:
Shmuel Trigano,qu'est ce que la religion?, 1er édition, France, Flammarion, 2004, p p 17-51

[2]- Ibid, p p 53-115

التنشئة الاجتماعية، مثل عناصر البنية العقلية ومفردات اللغة، والآخر مكتسب، وهو كل ما يكتسبه الفرد من مؤهلات تعليمية.

ويتخذ رأس المال الثقافي الطريقة نفسها التي نفكّر بها في رأس المال الاقتصادي، وخاصة ما يتعلق بتراكم رأس المال. فالمؤسسات الاقتصادية موظفة لضمان ربح أكبر يُنمّي رأس المال الاقتصادي، والمؤسسات التعليمية تستثمر في المجال التربوي من أجل تنمية رأس مال ثقافي، ورأس المال الاجتماعي هو ما يناله من مكاسب العلاقات الإنسانية في المجتمع، ورأس المال الرمزي، وهو عبارة عن الشرعية التي ينالها الأفراد أو الأشياء أو الموضوعات نتيجة اعتراف الآخرين بهم، وتتأسس هذه الشرعية على الاعتقاد والثقة.

إنّ السوق الرمزية مرتبطة بالاقتصاد الرمزي الذي يفرض وجود منتجين ومستهلكين للخير العقائدي، ولذلك يتحدث "بورديو" عن رأسمال رمزي وعمل ديني وفقر عقائدي وإعادة إنتاج من أجل "منح إطار لتغيير الكيفية والحدود التي تستطيع البنيات بها وضمنها الاستمرار في تأمين الوظائف التي تحددها، بالرغم من التحولات الواقعية التي تؤثر فيها،[3] وهو ما فتح لنا آفاقاً للبحث في السوق الرمزية العالمية، وإدراك وزن البضاعة الإسلامية ومدى قدرة المسلمين على تسويق تدينهم في العالم.[4] واضعين نصب أعيننا أنّ نجاح التواصل البيداغوجي يرتبط كما أكّد "بورديو" بتغيّرات مردود التواصل بالنظر إلى سمات المتلقين.[5] ويحقّ القول على التواصل بين المسلمين وغيرهم من الشعوب الأخرى، فهم مطالبون بأن يعلموا أنّ المعرفة ثروة من الرموز وأنّ كيمياء المعلومات صارت تفرض كثيراً من التغييرات، فنظام المعرفة الخاص بالمجتمع يترجم إلى عمليات تجارية[6] ولا يعود إلى نظريات مرجعية، فالتلقي أساس الاقتصاد الحديث، وحاجات المستهلك هي التي تحدّد خصائص البضاعة وطرق التسويق الملائمة. فقد كان التجّار في المساحات الكبرى يتبعون برنامج "إدارة الرفوف" و"نماذج المساحات" من أجل تحديد ما يتعيّن أخذه أو رفضه من السلع والمنتجات الخاصّة بهذه الشركة الصناعية أو تلك، وأيّها ينبغي عرضه في أكثر المساحات لفتاً للأنظار وأيّها يتعين وضعه في مكان آخر."[7] فكيف يمكن إذن إعادة إنتاج الإسلام وتسويقه بالاعتماد على حاجات المستهلكين الرمزيّين؟

---

[3]- ستيفان شوفالي وكريستيانشوفيري، معجم بيار بورديو، (ترجمة الزهرة إبراهيم)، ط1، دمشق/ الجزائر، دار الجزائر، 2013، ص 52

[4]- Pierre Bourdieu, Genèse et structure du champ religieux

In: Revue française de sociologie. 1971, 12-3. pp. 295-334

[5]- بيار بورديو- كلود باسرون، إعادة الإنتاج في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم، (ترجمة ماهر تريمش)ـ ط1، بيروت، المنظمة العربية للترجمة/مركز دراسات الوحدة العربية،2007، ص 185

[6]- انظر: ألفن توفلر، تحول السلطة بين العنف والثروة والمعرفة (تعريب فتحي حمد بن شتوان ونبيل عثمان)، ط2، ليبيا، مكتبة طرابلس العلمية العالمية، 1996، ص 119

[7]- المرجع نفسه، ص 135

2- مواصفات الإنتاج:

أ- دراسة ميدانية للسوق الرمزية وحاجات المتدينين:

لئن اعتبر ماركس أنّ الوعي الدّيني وعي مقلوب، فإن تلك الملاحظة يمكن أن تستثمر في توجيه فاعلية الدين من الإله إلى الإنسان باعتباره مركز التدين، وهي نظرة ارتبطت بالوعي الحداثي الذي جعل الإنسان مركز الكون بعد أن كان زمن اغترابه هامشاً تتقاذفه القوى الغيبية، ولذلك، فقد تغيّرت حاجات المتديّن المعاصر، فلم يعد يقبل بالوصاية الفكرية وما عاد يطمئنّ إلى إجابات جاهزة لأسرار الوجود، وما عادت تستهويه أساليب الكتب المقدّسة في القصّ زمن ثورة الصورة[8]، وانطلاقاً من ذلك فالحفاظ على الأشكال القديمة للتدين صار أمراً غير ممكن وانتهاج تلك الصرامة الفقهية في فرض تعاليم الدين على المتديّن صارت مدعاة للنفور منه، فلابدّ من الوعي بأنّ الحاجات المعاصرة للدين صارت تتّجه إلى المجالين الوجودي والنفسي، ففي ظننّا أنّ المجال السياسي قد شهد تطوّراً بلغت به النظريات درجة صار من الصعب على الأنساق الدينية مجاراتها، وكثير من تلك الأنساق الحديثة في الحكم تأسّست على أنقاض تصوّرات دينية، برّرت الاستبداد وشرّعت للمستبدّين باسم الله أن يحكموا في رقاب الناس ويتولّوا خلافة الله في أرضه[9]، ولقد استطاعت الفلسفة مع علم الاجتماع تفكيك النسق الديني بمحاولة تعرية المقدّس وكشف خيوطه الخفيّة من أمثال ماركس (Karl Marx) ودروكهايم (Emile Durkheim) وكايوا (Roger Callois) ورودولف أوتو (Rudolf Otto) وميرسيا إلياد(Mircea Eliade) وريني جيرار (René Girard). ولهذا، فالقدرة التنافسيّة للدين في المجال السياسي صارت ضعيفة، ولم يعد من الممكن إقناع المتلقي أنه لا يزال في الكون بشر يحكمون باسم الله، فقد أتى على المسلمين حين من الدهر أيقنوا فيه أنّ استعادة أشكال الحكم القديمة ما عادت ممكنة زمن انفتاح الوعي الإنساني على نُظُم سياسية تحترم إرادة الإنسان وحريته وتستوعب كثيراً من اختلافاته. أمّا المجال الاقتصادي، فقد تطورت فيه النظريات وتشعبت فروعها بعد أن صار الاقتصاد علماً له أصوله، وقد مكّن الاختصاص العلمي، في فروع كثيرة ضمّها هذا العلم، من التدقيق في المسائل الاقتصادية حتى صارت النظريات الحديثة أقدر على حلّ الأزمات ومواجهتها نظراً إلى روافدها العلمية وقدرتها على الاستفادة من التجارب التاريخية للبشر، بينما ظلّت النظريات الاقتصادية ذات المرجعية الدينية متمسّكة بممارسات محدودة في الزمان والمكان ومرتبطة بواقع مختلف عن عصرنا، ولهذا فقد سقط كثير من تلك الدراسات في التبسيط وظلت محكومة

[8]- يقول مخلوف حميدة: "الصورة اليوم فجّرت علاقتنا بالزمان والمكان، ليس فقط على الصعيد الجغرافي، بل وعلى الصعيد الاقتصادي والمعرفي والرمزي والخلقي أيضاً." مجتمع الصورة، ط1، تونس، ميديا قرافيك، 2009، ص 12

[9]- يقول حسن حنفي في إحدى محاوراته مع محمد عابد الجابري المنشورة "باليوم السابع" بتاريخ 29 يونيو 1989: "إنّ صورة فلاسفة التنوير الذين مهدوا للثورة الفرنسية، عندنا، عند رواد النهضة العربية في أجيالها المتعاقبة وبتياراتها المختلفة: الإصلاحي والليبرالي والعلمي، صورة مثالية الحرية والعقل والعدالة الاجتماعية والعلم والديمقراطية والدستور والبرلمان، في مصر وتونس والمغرب والشام." مصطفى التواتي، أثر الثورة الفرنسية في فكر النهضة، ط1، تونس، دار محمد علي الحامي،1991، ص 5

بالمرجع أكثر مما هي ناظرة إلى الواقع بكل تعقيداته وأزماته، إذ هي كثيراً ما تشهّر بالربا سبباً في الأزمات التي تشهدها المجتمعات المعاصرة، وتجعل من الزكاة حلاً لها[10]، ممّا أضعف من حظها في التنافس وجعل قدرتها على الإقناع واهية، وهي وإن وجدت في الحمل على الإقناع سبيلاً للبقاء في اللاشعور الجمعي للمتدين، إلا أنها سرعان ما تقف في مسالك مسدودة حين يتحول أصحابها من طور التنظير إلى طور التطبيق.

ولقد مكّن تطور المعرفة الإنسانية من إيجاد نظريات اجتماعية حديثة متعلقة بالتربية وتصوّر الأسرة والمدرسة والعلاقات الاجتماعية، فتسابق علم الاجتماع وعلم النفس في إيجاد الحلول التي تمكن الإنسانية من سبل علمية وطرائق أكثر نجاعة لتحديث المجتمع وتحسين العلاقات بين جماعاته وأفراده، في الوقت الذي حافظت فيه الخطابات الدينية على نغماتها الفقهية الموروثة ونظرياتها الثابتة حول المجتمع حتى صارت تدور في فلك زمن دائري لا يتقدم، يُخرج من الماضي مجتمعه ليقيس عليه علل المجتمعات الحديثة، ولا يكلّف نفسه عناء البحث في العلل الفعلية التي تعانيها تلك المجتمعات الحديثة، وحتّى في حالات اجتهاده في رصد الآفات الاجتماعية، فإنها كثيراً ما تكون ذريعة للتأكيد على حاجة الإنسان للتدين فتطرح الطقوس، باعتبارها الحل السحري لمحن المجتمع، ويقع التغافل عن الأسباب الاقتصادية والاجتماعية الكامنة وراء تلك العلل.

وفي المجال الثقافي لا تزال بعض أشكال التديّن في عداء مع الفنون، مثل المواقف الإسلامية المتشدّدة من الرسم والنحت والمسرح والسينما والغناء، في زمن تخترق فيه الموسيقى الكرة الأرضية في لمح البصر وتفعل السينما في النفوس فعل السحر ويخلّد المسرحيون خلود العظماء من الإنسانية، فما عاد من الممكن تجاهل القيمة الحقيقية للإبداع الفني "إنّ الفن، كما نعرف ذلك منذ زمن طويل، يقدم لنا ترضيات استبدالية تعويضاً عن أقدم ضروب التنازلات الثقافية، وعن تلك التي لا نزال نحسّ بوطأتها أعمق الإحساس، ومن ثم فإنه لا نظير له في توفيقه بين الإنسان وبين التضحيات التي قدّمها للحضارة. أضف إلى ذلك، أنّ الأعمال الفنية تشيد بمشاعر التشبه والتماهي التي تحتاج إليها كل جماعة ثقافية أشد الاحتياج، إذ تتيح لنا الفرصة لكي نختبر معاً وبالتشارك سامي المتع ورفيع المسرات. كما أنها تعمل في خدمة ترضية نرجسية حين تتشخص فيها آثار ثقافة محددة، وحين تذكرها على نحو مؤثر وأخاذ بمثلها العليا."[11]، وقد صار من الحتمي تجاوز عقلية العداء ضد تلك الأشكال الفنية من أجل أن تصير بضائعهم الإسلامية ذات فاعلية رمزية عالية، فقد يفعل فيلم سينمائي في

[10]- انظر مثلاً: طاهر حيدر حردان، **الاقتصاد الإسلامي: المال، الربا، الزكاة**، ط1، الأردن، دار وائل، 1999
أو: محمد شوقي الفنجري، **مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامي**، ط1، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2006

[11]- فرويد، **مستقبل وهم**، (ترجمة جورج طرابيشي)، ط4، بيروت، دار الطليعة، 1998، ص ص 19-20

الأنفس أكثر مما تفعله تلاوة القرآن على من لا يفقهون معانيه أو من يجهلون لغته التي كتب بها[12]، وقد تكون الترجمة عائقاً دون وصول سحر البيان إلى المتلقي، فإنّ للمسلمين في الفنون باباً للتأثير في قلوب الناس قد يفوق قدرة بناء المساجد وإكثار القنوات التلفزيونية التي تردّت في النمطية وثبات صورة الشيخ الجالس ذي اللحية الطويلة والثوب الأبيض يحذّر جمهوره من عذاب الجحيم.

فماذا بقي للدين الإسلامي ليتّخذه مجالاً للاستثمار وسوقاً يمكن أن يروّج فيه بضاعته؟

لا يمكن الحديث عن مطلب واحد للمستهلك الرمزي، فالحاجات كثيرة ومتنوعة، ولنا في تشخيص علم النفس للذات الإنسانية مداخل قيّمة لفهم الحاجات النفسية المعاصرة وأزمات الذات زمن الحداثة، إنها أزمة معنى وثقة في المستقبل، وقد حاول المجتمع الرأسمالي إيجاد حلول لتلك الأزمة لكنه ظل يفتقد دوماً إلى حلّ سحري لمعضلة الموت، ذاك الداء الوحيد الذي لم يجد له العلم دواء، ولذلك فالدين مانح فيتامين الشعوب على حدّ عبارة "محمد عابد الجابري"، وليس مجرّد أفيون يستلب الوعي الإنساني، ومن هنا فهو يطرح نفسه في سوق الأدوية حلاّ للأزمات النفسية والوجودية التي تعانيها الإنسانية الغارقة في مصالحها ونزعاتها المادية.

ب- مواصفات التديّن العالمي وشروط عبور القارات: الدين متعدّد الجنسيّات

لم يعد التسويق لدين عربي لا يعترف إلاّ بلغته، ويتعالى به العِرق العربي على سائر الأعراق أمراً مقنعاً؛ فمشروع الإسلام الجديد تستوي فيه كلّ الأعراق ويعمل بمبدأ "لا فرق بين عربي وأعجمي إلاّ بالتقوى"، ولا بدّ لهذا التديّن الذي نسوّقه أن يكون عابراً للقارات متحدثاً بكل اللغات متلوّناً بحسب العادات والتقاليد متنوعاً بحسب الحضارات. فلابد أن يجد كل فرد فيه ذاته ولابد لكل حضارة أن تضع عليه بصماتها، ولهذا فالدين متعدد الجنسيات قابل للتلوّن بالإرث الحضاري للشعوب متفاعل مع عاداتها، وليس ديناً ثابتاً يقف المسلم فيه عند أبسط مظاهر الاختلاف في أشكال التدين، ليكفّر ويخرج من ركب المؤمنين ممّن كيّفوا تدينهم لحضاراتهم. فأزمة الفكر الإسلامي أنه مثقل بإرث فقهي تدخّل في أبسط الأنشطة الإنسانية، يرافق المسلم في حِلّه وترحاله في اجتماعه وخلواته، حتى صار يحدّد خطواته ويحدّ من حريته، وأنه صيغ زمن الغلبة العسكرية والسياسية وهيمنة الحقيقة الواحدة، حين لم يكن التعدّد أمراً مفكراً فيه، وهو تدين ما عاد قادراً على البقاء زمن يقظة الوعي الإنساني على الحرية، وأول شروط الانتقال أن يتحول مفهوم التدين من إطاره الطقوسي الضيق

[12]- إنّ من الإشكاليات التي تعترض المسلم الآسيوي، أن كثيراً من الأئمة يصرّون على قداسة اللغة العربية في خطب الجمعة وفي الصلوات، فلا يكون أثر الكلام سوى مثيل لأثر الموسيقى السحرية في الأنفس، وتبقى العقول معزولة عن ساحة التفاعل الحقيقي مع الخطاب الديني.

ونواميسه التشريعية والجزائية إلى إطاره الوجودي والعملي، لكي يصير وسيلة مساعدة للإنسان المعاصر على تحقيق ذاته بدل أن يكون عامل استلاب واغتراب.

ج- مراجعة البضائع التقليدية وعوائق التسويق:

من المواصفات التي صار من الأكيد مراجعتها ارتباط الدين بالعنف، فلا يخفى أنّ تاريخ الأديان عامة مثقل بالعنف، و"لعل مصدر العنف هو ما نعلي من شأنه أو ما نتمسك به وندافع عنه من المبادئ والقيم أو المطلقات والمتعاليات أو المرجعيات والمقدسات القديمة والحديثة، الدينية والفلسفية، الخلقية والطوباوية"[13]، وليس العنف المقدس في الحقيقة سوى وجه من وجوه العنف لا يجعله الوحيد المنتج للحروب والمولّد للنزاعات، ومن السهل على المراجعة التأويلية للبضاعة الدينية أن تجد في المرجعيات الدينية حلاّ للعنف، فقدر الأديان أنها تحمل عملة بوجهين: وجه عنيف يشهر فيه السيف دفاعاً عن راية الإسلام جهاداً، ووجه متسامح يدعو إلى الدين بالتي هي أحسن.

ولعل جذور العنف كامنة في الفكر الديني ذاته، "فمن الواضح تاريخياً أنّ جميع الأديان قد استُخدمت لتبرير العنف من قبل بعض أتباعها في فترة من فترات التاريخ."[14] إضافة إلى اتخاذ كثير من المسلمين موقع الوصاية على الناس والمسؤولية عن أخطائهم، يحاسبونهم على أعمالهم متى خالفت المنظومة الأخلاقية التي يؤمن بها المسلم ويعدّون سكناتهم وحركاتهم، وهي عقلية موروثة من البيئة البدوية التي نشأ فيها الإسلام الأول، حيث يصير من العادات اليومية للناس الانشغال بسلوك الآخرين، بيد أنّ الإسلام المتحضر يفرض اليوم على المنتمين إليه أن يؤمنوا بالاختلاف سبيلاً للعيش والتعايش، فحرّية الآخر أمر لا نزاع فيه، ومهما كانت مبرّرات التدخل فيه مضمونة وفق المرجعية الإسلامية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنّ ذلك النهي بالوسائل العنيفة صار منكراً يفوق في التصور الإنساني الحديث المنكر الأول، ولذلك فعلى المسلمين أن يعوا أنّ اتباع نهج السلطة الأبوية في تأديب غير المسلمين ناشئ في عهود قديمة، وما عاد قادراً على البقاء في زمن الحرية والإيمان بحق الاختلاف.

د- مقاومة السمعة السيئة للإسلام:

لا يخفى على كل مسلم اليوم أنّ سمعة الإسلام صارت سيئة، وإذا حاولنا رصد أسباب تشكل تلك الصورة وجدنا أنّ الصورة السائدة عن الإسلام تظهره ديناً عنيفاً لا يؤمن معتنقوه بالوسائل

[13]- علي حرب، **العالم ومأزقه، منطق الصدام ولغة التداول**، ط1، بيروت/الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2002، ص 28
[14]- محمد أركون، **تحرير الوعي الإسلامي نحو الخروج من السياجات الدوغمائية المغلقة**، (ترجمة هاشم صالح)، ط1، بيروت، دار الطليعة، 2011، ص 157

السلمية، فهم إرهابيون بالقوة متى وجدوا الفرصة سانحة للانتقام من الغرب فعلوا، وحُلمهم الأكبر أن يبيدوا شعوباً بأسرها ليعيشوا مطمئنين. ولا علاج لتلك الصورة المثيرة لخوف الآخرين سوى التأكيد على الوجه المتسامح للإسلام وتجنب العنف سبيلاً للدفاع عن القضايا التي يؤمن بها المسلمون، فلو أرادوا العنف سبيلاً فلا بد أن يتّخذوا أسبابه ويجدوا آليات عقلانية ليصيروا في صف الكبار، وأمّا عنف الضعفاء فوبال على المسلمين وحجة للآخرين من أجل تبرير عدوانهم.

وأمّا أشكال التدين السائدة عند المسلمين، فقد ساهمت في إظهار الإسلام دين طقوس تعطل السلوك اليومي للإنسان[15] لتؤبّد عبوديته للقوى الغيبية، ولذلك فهذه الأشكال الموروثة من التدين مسؤولة عن التخلف الذي آل إليه وضع المسلمين في زمن صار الناس يقدّسون فيه الزمن، وهي مسألة تحرج الوعي الإسلامي لاتصالها بمقدسات لا يستقيم الإسلام دونها حسب ما هو سائد عند المسلمين، ولكن جعل الإسلام ديناً قادراً على إقناع المتديّن المعاصر يتطلب انتقاله من طور دين تسيطر عليه أشكال التدين القديمة القائمة على المحاكاة إلى ثقافة وحضارة تفتح المجال للمفكرين والفلاسفة والمبدعين للتفكير فيه وتطوير منظومته، إذ لا يمكن أن تختزل صورة المسلم في تطبيق الطقوس من عدمه، وإنّما في التفكير داخل النسق الإسلامي القابل للتوسّع أو خارجه، فمن حقّ المسلم الحفاظ على كلّ أشكال التدين التي يؤمن بها ما لم تخالف شرط احترام الاختلاف، ولكن تسويق الإسلام يتطلب القبول بإسلام حضاري تتبدل أشكاله بتبدل الثقافات والأمم.

لقد صار المسلم في نظر الآخرين متواكلاً، يعوّل على القوى الغيبية دعاء ولا يسعى إلى إيجاد حلول عقلانية لمحنه، ولذلك فالدين عائق أمام دخول المسلمين مسار الحداثة، ولا حل لهم إلا بالتخلي عن التواكل وإعادة تصورهم لأشكال التدين، حتى تصير مساعداً على التقدم بدل أن يكون عائقاً أمام التحديث. فقد تردّت ممارساتهم الدينية في الشكلنة المفرطة ففقدت كلّ محتوى أخلاقي. ولذلك يجب أن يقدّم المسلم في المستقبل صورة مشرقة تؤكد قدرته على جعل الدين مصدر قوة بالتركيز على البعد الأخلاقي في العمل ومعاملة الآخر؛ فالمسلم قادر على الإقناع بسلوكه أكثر من أقواله، وبذلك فكلّما قدّم أنموذجاً للشعوب الأخرى صدّق العالم الرسالة التي يؤمن بها، فالياباني لا يروّج بالقوة صورته المثالية في المتخيل العالمي، بل ينحتها بفضل عقلية شعبه وإقباله الخارق على العمل.

15- انظر مثلاً أحوال المسلمين الاقتصادية في شهر رمضان وضعف إنتاجهم وكثرة استهلاكهم مما يدفع دولهم في كثير من الأحيان إلى استيراد كميات أكبر من المواد الغذائية لتلبية الحاجات المتزايدة في شهر يفترض منطقياً أن يقلّ فيه الاستهلاك

هـ- السوق الداخليّة وشروط التسويق:

إنّ الفتنة الكبرى لا تزال تثقل وعينا وتؤجّج الصراعات بين أبناء الدين الواحد، ولا تزال خلافات الأمس مفتوحة على مصراعيها، وكأنها لم تَرْتَوِ من الدماء التي سُفكت ولا قنعت بالرؤوس التي قُطعت وهي تُكَبِّرُ؛ فقد ظلّت الفرق الإسلامية تقيم جدار فصل لاهوتي بينها، وتغلق كل أبواب الحوار المذهبي، فزادت صورة الإسلام لوناً قاتماً، ولا حلّ لهذه الأزمة على حلبة المساجد والحسينيّات، وإنما الحلّ الأنجع في إيجاد أصوات علميّة عاقلة تكون مؤمنة بانفتاح التأويل وتجاوز الفرقة بين الفرق من خلال ميثاق إسلامي بين الفرق الإسلامية[16] يتم فيه عقد يضمن الاحترام المتبادل بينها وتحريم إراقة دم المسلم على المسلم، وهو مشروع يجب أن ترعاه النخب المثقفة صاحبة المسؤولية الأخلاقية في إيقاف نزيف بدأ منذ الفتنة الكبرى، ولا تزال جولات النزال فيه متواصلة، ورجال الأعمال الذين من مصلحتهم أن تزول كل الحواجز العقائدية وتؤمّن السبل السياسية والاقتصادية من أجل الاستثمار وتحقيق الربح المنشود؛ فالربح الرمزي الذي تجنيه الفرق من عقدها الديني تظل نتائجه الاقتصادية والاجتماعية عائدة بالنفع على رجال الأعمال والمستثمرين وسائر شرائح المجتمع، فقد صار الأمن حلماً بعيد المنال في دول تمزقها الصراعات الطائفية، أمّا المصالح السياسية فتظل دوماً متضاربة، وهي تستفيد في كثير من الأحيان من الخلافات المذهبية بين الفرق وفق منطق الاستجابة للمصالح الخارجية التي تتدخل باستمرار في السياسات الداخلية للدول الإسلامية.

ولا يمكن لمثل هذا الميثاق أن تمضيه الأطراف المتنازعة إلا بتجاوز النظرة التي لا ترى في الإسلام سوى محاكاة لخلافاته الماضية وتصور قدرة المسلم على النظر إلى إسلام المستقبل بالتخلص من عقدة الإسلام المغلوب، وترسيخ عقيدة الإسلام الواثق من قيمه من أجل التفكير في حلول أكثر جدية لتجاوز الأزمة الإسلامية بدل الغرق في مشاكل الماضي وتحمل أخطاء السلف، وذلك بتحويل وعي المسلم من وعي مغترب عن الواقع يعيش الماضي إلى وعي معاصر، يرى ما يطرحه الواقع على المسلم المعاصر من تحديات جسيمة تنوء بحملها الجبال.

ولن يجد هذا التصوّر أسباب نجاحه إلا بتنشيط الحركة الفكرية المعاصرة التي تستفيد من مكتسبات العلوم المعاصرة، وتجاوز عقلية الانغلاق على كتب التفسير والفقه التي تؤبد الانتماء إلى عالم الماضي وتعمق من استلاب المؤمن، والنظر وفق مقاربات معاصرة تستطيع جعل الدين الإسلامي أكثر قدرة على إقناع الشعوب الأخرى برسالته السماوية السامية ومبادئه الأخلاقية كالرحمة والمساواة والعدل والحرية واحترام إنسانية

[16]- يمكن أن نتخذ من العقد الاجتماعي لروسو مرجعية في ضبط العقد الديني بين الفرق الإسلامية يتصل بتجنب المسائل الخلافية والاحترام المتبادل للمقدّسات وصياغة مبادئ الحق الديني، ويكون شعاره عقداً متكافئ الشروط بين المتعاقدين على حدّ عبارة فرجيل.

الإنسان، وهي تتطلب جرأة من فريق الإنتاج في التخلي عن الوسائل القديمة وتغيير طريقة العمل التي ما عادت تهب رجل الدين وحده حقّ تقرير مصير الإسلام، فلزام عليه النزول من منبره وقبول الحوار مع أطراف أخرى تشاركه الرأي في إعادة إبداع المنتوج الديني من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلماء النفس ورجال الاقتصاد والساسة وسائر الأطراف التي تتدخل معرفياً من أجل أن يصير المنتوج الديني أكثر قدرة على استيعاب مشاغل الإنسان المعاصر وفهم مشاكله من أجل إيجاد حلول رمزية ومادية لها.

ولعل من أسباب تعثّر هذا المشروع الذي نادى به كثير من المفكّرين أنّه ظلّ مشروع النخبة، لا يكاد يجاوز المجالس الضيقة وأسوار الجامعات، بينما ظلت المنابر الأخرى تشحن المؤمنين بالأحقاد التاريخية وتعيد على أسماعهم بمناسبة أو بغير مناسبة مآسي الماضي، لتملأ القلوب حقداً على خصومهم، وكأنّهم المسؤولون الحقيقيون عن جراح الماضي وصراعاته. فتلك المنابر ذاتها يجب أن تكون ناطقة بصوت التسامح مؤمنة بالعقد الديني بين الفرق المختلفة؛ لتسري تلك القيم بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم، وليروا بعين التفاؤل مستقبلهم بدل الغرق في مشاكل الماضي.

و- السوق الخارجية ومراعاة الحاجات العالميّة للتديّن:

إنّ الناظر بموضوعيّة إلى السوق الرمزيّة يلاحظ كساد الأسهم الإسلامية في بورصة التداول الرمزي؛ فقد صارت المواصفات العالمية للتداول الرمزي تفرض الاحترام المتبادل والإقرار بحق الشعوب والأفراد في الاختلاف والارتقاء بالقيم الإنسانية إلى طور التعاقد والإيمان المشترك، مثل قيم الحرية والعدل والمساواة التي تلائم المنظومة الأخلاقية السامية، ولذلك فقد صار من أسباب ضمان التسويق العالمي للإسلام تأكيد معتنقيه على مبادئ التسامح ونبذ العنف والأخوة بين بني البشر واقتراح صيغ عملية لتقريب الهوة بين الفقير والغني. مع التركيز على كل مثالب العولمة لضمان قدرة تنافسية أكبر في السوق العالمية يجد فيها كل الناقمين على المنتوجات الرمزية للعولمة ملاذاً آمناً وحضناً دافئاً يقيهم سطوة المادية ووهن القيم الأخلاقية.

ويتسنّى ذلك عبر التسويق لمؤسسات إسلامية تتبنى شعارات أخلاقية إسلامية لا تتعارض مع القيم الإنسانية المشتركة، وتلتزم بتطبيقها داخلياً حتى تكون أنموذجاً للتسويق العالمي، في ظل عولمة فقدت الكثيرُ من مؤسساتها مصداقيّتها لنطقها بحق الغالب وهضمها حق الشعوب الفقيرة والمغلوبة على أمرها.

ولا يمكن لمثل هذا المشروع أن يتحقق إلا حين يقوم المسلمون بمراجعات جريئة تنأى عن رسم صورة للإسلام تظهره شاقاً في طقوسه، وقبول فكرة المسلم غير الممارس للشعائر بتحويل الإسلام من رابطة عقائدية إلى رابطة ثقافية تضم داخلها كل المقتنعين بمبادئه الإنسانية، ولا يتسنى ذلك إلا من خلال دراسة علمية تتجه

صوب البحث عن أسباب القطيعة بين الآخر والإسلام، ومحاولة إيجاد حلول عملية يتجاوز فيها الآخر خوفه وهواجسه من الإسلام بتعديل تصوراته وتقديم حلول للمعضلات التي يطرحها في تصوره للإسلام بدعم القدرة التنافسية في التسامح والخير والقيم السامية، من خلال تقديم الأنموذج العالمي للتسامح والتشهير بكل الممارسات التي تحاول وضع أقنعة سياسية وحقوقية من أجل إظهار صورتها ناصعة نقية، والحال أنّ المصلحة هي هاجسها الوحيد.

3- دراسة لآليات التنفيذ

أ- الإشهار وسلطة الإعلام:

لقد صارت صورة المسلم نمطية في القنوات الفضائية: شيخ جالس يعطي المُشاهد إيحاءً بالعجز وقُرب الموت، ومشْهد ثابت لا يتغيّر، يعلو صوت الخطيب بلغة عربية فصيحة أقرب إلى لغة الفقهاء وبنبرة يحاول بها إثارة مشاعر الرهبة من المقدّس، وثوب أبيض يوهم المتكلم والمخاطب بخطاب كالوحي يحلّق فوق السحب وينتصب أصحابه نوّاباً للسماء على الأرض، هاجس الخطيب رحلة نحو ماضٍ ساحرٍ مضى وانقضى، وبكاء على أطلال النبوة والصحابة الطاهرين يولّدان نقمة على الحاضر وأصحابه المرتدين، ثم قفزة عملاقة نحو عالم المستقبل البعيد: عالم الغيب والشهادة حيث الشيخ خبير بأدق جزئيات الجنة والجحيم، واقف على الحدود يتوعّد الكافرين بخطابه بنار وقودها الناس والحجارة ويَعِدُ المؤمنين بمنظومته بالحور العين، وهو بينهما في هيأة المسؤول عن العابرين، في مشهد لا يختلف كثيراً عن صورة الجزاء في رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، والخطاب العربي مقتصر على الناطقين باللغة المقدّسة غير معني بخطاب الآخر، ولهذا فلا تكلف تلك القنوات نفسها عناء ترجمة أقوال الشيوخ، والحمد لله، فنقل تلك الخطب إلى "العالم الكافر" من شأنه أن يؤكد انغلاق الخطاب الإسلامي، ويؤبّد صورة المسلم العدواني الذي يستورد قمح الغرب ويدعو عليه بالكوارث الطبيعية، ويشرب من حليب أبقاره ويدعو عليها بالهلاك.

إنّ تلك القنوات التي تموّلها الدول الراعية بسخاء من أجل نشر صورة نمطية للإسلام هي المسؤولة عن توليد خطاب العنف، وهي التي تحكم على المسلم بأن يعيش مغترباً عن واقعه بين زمنين، ماضٍ سحري ومستقبلٍ غيبي، أمّا الحاضر فلا يعنيها، وأمّا المستقبل الدنيوي فلا أثر له، تتحول حياة الإنسان إلى نقمة على الوجود وطمع في الخلاص بالموت.

إنها قنوات إيديولوجية لا همّ لها سوى الصراعات الطائفية، تمارس خطاب الفرقة الناجية وتزجّ بالعالم كله في الجحيم، وهي لا يمكن أن تصلح ذاتها لأنها ترتبط بإرادة أطراف سياسيين همّهم الحفاظ على ثبات التدين

الذي يروجون له حفاظاً على مصالحهم السياسية والاقتصادية. ولا يمكن تغيير خطابهم إلا بالقضاء على جذور السلطة التي تغذيهم بخطاب ديني غارق في النمطية ومعدم للبعد التاريخي. فحين تفتح أبواب الإبداع للعقل البشري الحرّ، يمكن للمسلم المعاصر أن ينتج أشكالاً إعلامية مختلفة تروّج لدينه، مثلما روّج له التجّار الأوائل في آسيا، باعتماد سماحة المسلم وتقديمه أنموذجاً راقياً للأخلاق، وهدم أسوار التصوّرات القديمة للتدين عبر جعل الدين دماً يتدفق في برامج الأطفال ومسلسلات النساء وأغاني الشباب وأفلام الكبار وحوارات المثقفين، دون أن يتحول إلى هاجس يؤرق السامع، فهو أنجع حين يصير متدفقاً في شرايين الإعلام دون أن نشعر بتوقف الزمن من أجل شرح التيمّم أو تفسير حكم فقهي لا علاقة له بالواقع، فالدين الإسلامي حبّ للخير وإحسان للبشر وإيمان بالعدل والحرية، وهو أن يحب المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه، وهو متنوع تنوع الحضارات والثقافات والطبقات.

ب- إسلام الفرحة والأمل:

وهو مشروع ينقل التديّن من إسلام الرؤوس المقطوعة إلى إسلام الوجوه الناعمة والجنة العالية والسرر المرفوعة والأكواب الموضوعة، ومن إسلام الحزن والموت إلى إسلام الحياة والطمأنينة على المصير. ويمكن في هذا الباب تجاوز الصورة الحسيّة للجنّة، حيث وفرة الخمر واللّبن والعسل وماء الكوثر والحُوريّات والغلمان وغيرها من الخيرات الجزيلة التي لا حصر لها، إلى جنّة رمزيّة تحقّق الخلود، وتلبي الرغبات الوجودية للإنسان في النعيم العقلي والنفسي والشفاء من داء الموت. فما ينفق اليوم على صورة الرجل الملتحي الذي يحتل الشاشة ساعات آمراً ناهياً متخذاً دور البطولة الذي لا يشاركه فيها أحد، وزي البياض الذي لا يتغير مذكراً بعالم الموت، يمكن أن ينفق لإخراج صورة حديثة عن الإسلام تتنوع وسائل التأثير فيه، فصورة الإسلام لا بدّ أن تتغير من نمطية إلى عمل يشارك فيه الفنان والمبدع من السينمائيين وأهل المسرح والمغنين، حتى تتنوع صورة الإسلام وتتغير إيقاعاته الرتيبة، ويصير مغرياً بالاتباع بدل أن يكون مرعباً مخيفاً يؤكد هواجس الغربيين، وهم يتحدثون عن "الإسلام فوبيا" أو "عقدة الخوف من الإسلام".[17]

ولذلك لابُدّ من برامج إعلامية تكون أشبه بحصص التحليل النفسي التي يتولى فيها المختصّون عبر كلّ طاقاتهم الفنيّة علاج الآخر من عقدة خوفه، والأخذ بيده ليدخل ديار الإسلام، وهو آمن ويخرج منها آمناً إن شاء[18]، فتتوارى قوانين الردّة والتكفير وتبرز قيم التسامح واللين. فلابدّ للمسلمين من الإيمان بأنّ الوضع الجديد

---

[17]- انظر:

Chris Allen, Islamophobia,1st édition, England, Ashgate Publishing Limited, 2010

[18]- يُحكى أنّ بعض "الكفار" أراد الدخول في الإسلام وهو كهل، فاستخبر أحد علماء الدين عن المطلوب منه كي يستجيب لمقتضياته، ففسر له الشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحج، فلم يعترض عليها وإن وجد في الالتزام بها بعض العسر. وظن أنه استوفى شروط الإسلام حين قبل هذه الأركان، لكن ما راعه إلاّ والشيخ يقول له متحرّجاً: بقي شرط أخير لا بدّ منه، أن تختتن. إذاك خطر لصاحبنا وهو مقبل على عملية بتر لا رجعة فيه: وإذا أردت يوماً أن

للسوق الرمزيّة يتطلّب منطقة تبادل حرّ تهب المستهلكين قدرة أكبر على الاختيار بين الأديان أو بين أشكال التديّن في الدين الواحد، ولذلك فالمسلمون مطالبون بتنويع منتوجاتهم الرمزية حتى تستجيب إلى حاجات المستهلكين، فكلّما ضاق الاختيار كسدت بضاعتهم الرمزية واندثر دينهم. وعوض أن تعود الاختلافات المذهبية بالوبال عليهم عنفاً وتقتيلاً تصير عامل تنوع يوفر مجالاً للاختيار ويزرع بذور الأمل بتغيير تصور المتلقي لعالم الموت من عالم مخيف ومحزن إلى عالم الرحمن الرحيم، حيث جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وتنفتح فيها الصورة التأويلية للجنّة على المنشود حيث يمكن للمؤمن أن يتصور ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت. فالمقدس كما عرفه روجي كيوا (Roger Callois) يثير مشاعر الرغبة والرهبة، وفي عصرنا يصير من الأنجع اعتماد خطاب الرغبة بدل الرهبة؛ فقد تجاوز العقل البشري مرحلة الطفولة، وصارت البضائع الرمزية متنوعة في عصر الصورة وثورة المعلومات، ولهذا فهو في حاجة ماسة إلى إسلام الأمل في زمن القلق النفسي وضغط الزمن.

ج- إسلام التنوع والتعدد وقبول الاختلاف:

ويتحقّق بتجاوز كلّ الخلافات المذهبية والتنازل عن عقلية الخصام والتكفير والرجوع إلى الأصول بدل الصراع على الفروع "فالمؤمنون أخوة"، ولا معنى للإسلام ما لم يسلم الآخر من يد المؤمن ولسانه. فلابُدّ أن يتخلص المسلمون من عقدة الفتنة الكبرى التي لا تزال تلقي بظلالها على المسلمين وتغذي حروباً بين المسلمين باسم جرائم ارتكبت في الماضي ويسأل عنها أصحابها، فهل يحمل كلّ سنّي وزر حرمان "علي بن أبي طالب" وعترته الصالحين من الخلافة بعد موت النبي أو مقتل ابنه الحسين أو التنكيل بأتباعه؟ وهل يحاسب الشيعة اليوم على صراع أسلافهم من أجل الدفاع عن حق أئمتهم في الحكم؟ فلينظر المسلم أنّ الخلافة راحت وانقضت، وأنه لم يبق من صفحات التاريخ سوى حقد دفين لا ذنب لمسلم اليوم فيه. وليكن المسلم أكثر وعياً بالمؤامرات التي تحاك ضده في العراق وسوريا وفي مناطق أخرى من العالم الإسلامي من أجل أن يظل ملف الفرق سبباً في الفرقة بين المسلمين، فلقد صار قتال المسلم للمسلم مُقدّماً على قتال الأعداء الحقيقيين. وهل من مصلحة المسلم اليوم أن يبدو للأقوياء عنيفاً والحال أنّ كثيراً من الدول الإسلامية تعاني مشاكل الاستبداد والفقر والتخلف الاقتصادي ونهضة بعضها مرتبطه بقوة الذهب الأسود الذي تنتهي قصة مجد تلك الدول بنفاده؟ فعلاج المشاكل الداخلية للمجتمعات الإسلامية أوكد من فتح جبهات صراع وحلم بنشر الإسلام وفق الصورة المتخيلة التي تردّت في النمطية والمحاكاة اللاواعية، والحال أنّ كثيراً من معتنقيه في حاجة إلى تعهّد إسلامهم. فدعاة اللحية البيضاء وخطب الفقهاء هم أحوج إلى فتح آفاقهم الذهنية من عقول آمنت بقدرة الإنسان وتجاوزت الوهن

أتخلّى على الإسلام؟ فأجابه الشيخ بدون تردّد: إذن تقتل. ففرّ الرجل هارباً وهو يقول: أيّ دين هذا الذي إن دخلت فيه قطعوا لك رأس ذَكَرِكَ، وإن خرجت منه قطعوا لك رأسك؟" من تقديم الأستاذ عبد المجيد الشرفي لكتاب: عبد الرحيم بوهاها، طقوس العبور في الإسلام دراسة في المصادر الفقهية، ط1،بيروت، دار الانتشار العربي، 2009، ص 9

وغزت البر والبحر والفضاء. فأين إسهام المسلمين في مجال العلم؟ وهل قَدَرُهم أن يظلّ علمهم في اجترار خطاب فقهيّ لا يزال هاجسه إخفاء جسد الأنثى وطول لِحْيَة الرجال؟

إنّ صورة الإمام الممسك بعصاه على المنبر، على ما فيها من روافد دينية ومرجعيّات نبوية لعبت دورها التاريخي في التأثير، قد صارت صورة نمطية مستهلكة تعجز عن التأثير في الناس وخاصة الآخر المختلف لغة وحضارة. ولذلك، فمن المنطقي أن توظّف الآليات الحديثة للحوار عبر الوسائل السمعية البصرية ووسائل الاتصال الحديثة، وألا تكون تلك الحداثة مرتبطة بآليات ثابتة في خطابها، وإنما يجب أن يسهر عليها أخصائيو الحوار بين الحضارات، بما يضمن معرفة المُحَاوِرِ بالآخر قبل أن يطرح على نفسه ترويج إسلامه؛ فالإسلام يكون أكثر إقناعاً حين يعي المؤمنون بالحاجات النفسية والأزمات الرمزية التي يعانيها الطرف المقابل، وكلمّا كان الوعي أعمق بحاجات المتلقي ضمن المحاور نجاحاً في استقطابه، عبر آليات عقلية تبتعد عن الخطاب الإيديولوجي المشحون بالحماسة، وتنزع إلى المقاربة العلمية التي تشخّص الداء وتوجد من الإسلام الدواء طمعاً في إيجاد حبل سري يربط المعتنق الجديد بالإسلام، ثم تخضع العملية إلى خطة عقلانية من أجل استكمال المسار وضمان تحويل المتلقي إلى باثٍ جديدٍ يروّج للقيم التي آمن بها. فإسلام المستقبل يراهن على استيعاب الاختلاف واستثمار قوته بدل الوقوع في ويلات فتنه ونزاعاته، ولنا في التجربة الصوفية خير شاهد على قدرة التصور الديني قبول الآخر واستيعاب اختلافاته، مادام يؤمن بقيم سامية. فقد أكد المتصوفة على مبدأ وحدة الأديان، وجعلوا الحكمة قادرة على بلوغ الحقيقة قدرة الشريعة، فأخرجوا الفكر الديني من انغلاقه، وأعطوه بُعداً تأويلياً يوسّع من دائرة التسامح فيه، يمكن أن تكون نواة لمشروع وحدة الأديان ونبذ الخلافات بين البشر باسم اختلاف الطقوس أو تباين التصورات بسبب اختلاف الظروف الحضارية والتاريخية التي احتضنت دعوة الأنبياء، فثمّة خيط رابط بين جميع البشر وبين جميع الأديان يمكن أن يقلّص من مساحات الخلاف، وإن كانت هناك اختلافات، ويمنح الإسلام مرونة أكثر في قبول الآخر تكون أنموذجاً للأديان الأخرى، فسحب فتيل العنف وفق منطق المحاكاة الذي أقره رينيه جيرار (René Girard) يبدأ بتنازل طرف عن أن يكون عنصراً مغذّياً للعنف لتصير المحاكاة في السِّلم بدل أن تكون في العنف.

لقد استطاع التجّار المسلمون ترويج الإسلام في آسيا، وبقيت آثار الإسلام قائمة في الهند وباكستان وأندونيسيا وماليزيا، وبذلك يتمّ استبدال آلية التسويق بالعنف، وهي آلية فاشلة في عصرنا لأسباب موضوعية إلى آلية التسويق الأخلاقي القائمة على رفعة الأخلاق وتقديم الأنموذج الإسلامي الموروث من الأخلاق العربية. فالعنف مصيره عنف يحاكيه، لا قدرة للمسلمين اليوم على مواجهته، ورفعة الأخلاق والتسامح عملتان لا يمكن أن تنتجا إلا التسامح والمعاملة بالمثل، في زمن نحن في أمس الحاجة فيه إلى علم الغرب وتقدمه من

أجل مجاراة نسق التطور العلمي والاقتصادي والتكنولوجي، وكلّ فتح لمواجهات باسم صدام الحضارات والأديان سيؤبّد وضع التخلف الذي نعيشه، ويمنح الآخر قدرة أكبر على التقدم في سباق الهيمنة والتسلّح.

وإسلام المستقبل يتخلص من الهيمنة الذكورية ويعامل المرأة معاملة الكائن الإنساني الفاعل لا معاملة الضلع الأعوج، فتسويق الإسلام مرتبط بتغيير ما ساد من أشكال التدين البالية التي تستهجن المرأة وتمنعها من أبسط حقوقها في الحرية والعمل.

د- إسلام العلم بدل الإسلام الناشئ في رحم الأسطورة:

لا يخفى أنّ التصورات الدينية نشأت على أنقاض التصورات الأسطورية السائدة، ولكنّ تلك القطيعة لم تكن ممكنة، فقد تكيّف تفسير القرآن بالأسطورة، وتأثرت تصورات فقهية كثيرة بما ساد في الوعي العربي زمن نشأتها، من تصورات ميثية لا يمكن للمتلقي المعاصر أن يقتنع بها، ولذلك فالحاجة تظلّ ملحة إلى إعادة تفسير القرآن وفق التصورات الإنسانية المعاصرة مستفيدة من مكتسبات العلوم اللسانية والاجتماعية والنفسية، فلا تزال آراء المفسرين القدامى جاثمة على روح التجديد، لأنّ أول فتوحاته تكون لسانية، وما دام هذا اللسان ناشئاً في بيئة تفشت فيها الأمّية وساد فيها التصور الأسطوري، فإنه سيظل لا محالة سبباً من أسباب الاستلاب التي يشعر بها المسلم المعاصر، ولئن دعا محمد أركون إلى تفكيك التراث من أجل إعادة قراءته وكشف بنيته الداخلية، فقد مات قبل أن يخرج بتصور متكامل للمستقبل الإسلامي، وحاول الجابري المضي قدماً في مشروع البحث عن العقل العربي بنية وتكويناً وسياسة، فإن هذه القراءات كثيراً ما غرقت في كهف التراث، وظلت تحتاج إلى طرح حلول عملية على الإسلام المعاصر، مما جعل الجابري، على جلال ما أنجزه من مشروع فكري، ينتهي إلى تفسير للقرآن يعيد إنتاج الماضي، ويؤبد سلطة المعارف القديمة في الوقت الذي نحتاج فيه إلى مغامرة معرفية لا نخشى فيها تكفير المتشددين، فقدر المجدّد أن يكون غريباً دوماً بين المقلدين، فهل يمكن للغة أن تنعتق من سلطة مراجعها وأن تصير دائرة التأويل ناطقة بهموم المسلم المعاصر بدل نطقها بهموم البيئة التي أنتجتها وأثرت في مفرداتها ومعانيها؟ وهل قدر من حاولوا التجديد من ينابيع التراث أن يغرقوا في يمّه؟

4- ترويج الإسلام:

لعلّ من أعجب غرائب هذا الزمن أن يعجز المسلمون، رغم الثروات المادية والرمزية عن تغيير صورة الإسلام التي صارت سيئة السمعة إرهاباً وتخلفاً عن ركب الحضارة في نظر الآخر والحال أنهم ما عجزوا عن محاكاة الغرب في لباسه وبناياته الشاهقة حدّ ملامسة السحاب، وهم في العالم ناجحون في الاستثمار، إلا أن فشلهم ظل مرتبطاً بالسوق الرمزية التي أساؤوا تداول الإسلام فيها، فصار عنوان الإرهاب ومصدر الخوف

الأعظم، ولذلك فإمكانية الاستثمار في هذا الباب كبيرة وآثارها الاقتصادية مضمونة حتماً، ولينظر المسلم ماذا سيجني في الحياة الدنيا لو استطاع أن ينجح في التسويق لإسلام معتدل يحترم الاختلاف وينبذ العنف.

إنّ أول عائدات الإسلام المباشرة من خلال ارتفاع عدد المسلمين، وذلك مكسب رمزي ومادي في الوقت ذاته، فمن شأن توسيع رقعة الإسلام ضمان انتماء أنظمة وشعوب متنوعة قادرة على التأثير إيجابياً في صورة الإسلام من خلال خلق ديناميكية اقتصادية وثقافية قادرة على تجديد روحه وتجاوز هناته، وهو رواج لموسم الحج الذي يمثل مورداً للمسلمين لا يستهان به، وعلى قدر الحجيج يكون الربح، ويمكن لهذا الموسم أن يكون فرصة لأداء الشعائر وتسويق صورة أنصع عن الإسلام من خلال تنظيم تظاهرات ذات بعد ثقافي تحاول نزع فتيل التوتر بين المسلم والآخر، فكثيراً ما تستغل الدول اليوم تنظيم تظاهرات متنوعة الأنشطة لتسوّق قيماً أو تدعو إلى رسالة عالمية، فلا حرج في أن يرفع الحج كلّ سنة شعاراً يقلص من أعداء الإسلام ويغري باعتناقه، موظفاً كل الوسائل الحديثة لترويج تلك الصورة ونشرها في العالم. وليس منكراً أن يعود للمسلمين بيت مال يسهم في تقليص أعداد الفقراء في العالم الإسلامي، والقضاء على الأزمات الاقتصادية والاجتماعية ومن أهمها البطالة.

إنّ تغيير صورة الإسلام العنيف يمنح الدول الإسلامية فرصة أكبر لتكون أرضاً للاستثمار، ويبدّد خوف المستثمرين من دخول كثير من الدول عشّش فيها الإرهاب، وهو يمنح فرصة أكبر لتجاوز الأزمات الاجتماعية مثل البطالة والفقر. وإنّ من ويلات الإرهاب الإسلامي أنه جعل اندماج المسلم في المجتمعات الغربية أكثر عسراً بحثاً عن الاستثمار أو فرص العمل أو الدراسة والبحث العلمي، وإنّ تغيير صورة الإسلام العنيف بإسلام متسامح من شأنه أن يعيد تلك الثقة بين المسلم والآخر الغربي، ويمكنه من بناء تعاون علمي واقتصادي مثمر.

5- من الداعية إلى الخبير:

إذا حاول المسلمون تبسيط علاقتهم بالدين، فإنهم إمّا أن يكونوا مسؤولين عن تطبيق تعاليمه، وتلك مسألة شخصية تتصل بعلاقة المؤمن بربه، أو بنشر دينهم وتلك مسألة لا بُدّ أن تتخذ آليات مختلفة عن السبيل الأولى؛ فالمهمّ في هذه المسألة ضمان أفضل الطرق للتسويق الديني، ولذلك فلابُدّ أن تكون طريقة العرض مختلفة بشكل جوهري عن الطريقة التقليدية، ذلك أنه ثمّة علم اليوم يتعلق بإدارة الأعمال يتولى فيه الخبراء المختصون عرض البضائع بطريقة علمية تضمن رواجها، فتوضع البضائع وفق حاجات المستهلك خاضعة لنظام صارم يعتبر كلّ إخلال به إنقاصاً من فرص الربح، ويتمّ تغيير مواقع البضائع كُلمّا كسدت بضاعة، وهذا العلم ليس وليد معرفة اقتصادية فحسب، بل يمتدّ إلى مجالات أوسع للتأثير في المستهلك وحمله على الاستهلاك أكثر مثل علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الاقتصاد. ويحق القول على الاستثمار في المجال الرمزي الذي يتطلب قدرة

على تقديم بعض المسائل العقائدية على الأخرى في التسويق للإسلام بحسب الحاجات الإنسانية المعاصرة وبمراعاة الاختلافات الثقافية للدول التي يروّج لها الإسلام، ولا غرابة حينئذ أن تختص جامعات حديثة في تخريج أخصائيين في الترويج الديني للإسلام بديلاً عن الدعاة الذين كثيراً ما يجدون عسراً في التواصل مع الشعوب الأخرى بحكم تشبثهم باللغة العربية وجهلهم بطبيعة المتلقي وشخصيته، إذ يمكن بالعلم إيجاد مفاتيح التأثير فيها، فبعض الشعوب تتأثر عبر بعض قنوات التواصل وترفض طرقاً أخرى بحكم موروثها الثقافي، والمشروع يتمّ بتحويل الخطاب الديني من خطاب نمطي ثابت يكرّر ذاته إلى خطاب ديناميكي يتفاعل بحسب المقام وطبيعة المتلقي سعياً إلى التأثير فيه عبر عملية تأويلية تستوعب التنوع الفكري في الإسلام وتستغل الآليات المعاصرة في الحجاج والإقناع؛ فخطاب الدعاة يظل دوماً نمطياً يردّد مقولات الماضي دون مراعاة للتحولات التاريخية التي شهدها الواقع، وفي أفضل الحالات يلجؤون إلى تصوّر للعالم على أساس تصورات قديمة تقسمهم إلى كفار ومسلمين؛ فمن شأن هؤلاء الأخصّائيين أن يتجاوزوا هنة التأخّر التاريخيّ الذي شهده الخطاب الديني عند الدعاة.

6- الآفاق الاقتصادية والآثار الحضارية:

قد يكون الحديث عن تسويق الإسلام نابعاً من الشعور بوجود أزمة صدام يروّج لها الغرب، تمنع العملة الإسلامية من التداول في السوق العالمية، وتروّج لصورة سلبية كسد بها سوق التديّن الإسلامي، في الوقت الذي تحافظ فيه أشكال التدين الأخرى في العالم مثل المسيحية واليهودية على سمعة طيبة، رغم أنها لا تقلّ عنفاً في تصوراتها وممارسات معتنقيها؛ فالأزمة الحقيقة إذن ليست في الإسلام ديناً، وإنما في أشكال التديّن التي يتمّ ترويجها، فمن أسباب كساد السلع أن تُعَلَّبَ بشكل سيء، والإسلام في حاجة إلى أن تكون ألوانه زاهية بدل اللون القاتم الذي طغى عليه، وصورة اللِّحَى والأزياء السوداء التي تحجب المرأة عن الأنظار؛ فمن حقّ المسلم أن يُمارس حرية لباسه، وأن يطيل لحيته ما شاء، ولكن ليس من مصلحة الإسلام أن ترتبط صورة اللِّحَى بالقنابل الموضوعة في الطائرات والقطارات، وأن يرتبط سواد نقاب المرأة بسواد مصيرها الاجتماعي حرماناً من حقها في العلم والعمل وتشريعاً لنكاحها مثنى وثلاث ورباع. ففي الإسلام مشاهد كثيرة يمكن أن نسوّقها وتعود بالنفع علينا من قبيل تسويق العدل العمري أو العقل الاعتزالي أو التسامح الصوفي، فتلك كلّها وجوه مشرقة يمكن أن تنسي الآخر قتامة الثوب الأسود وخشونة اللحية الإرهابية.

لقد صار مطروحاً على الإسلام أن يعقد صلحاً مع الأنظمة الاقتصادية القائمة وفق قراءة نقدية تتفاعل مع الواقع العالمي، وتطرح من خلال أطروحاتها حلولاً اقتصادية وعملية بعيداً عن مشاريع النسف المبشّرة باقتصاد إسلامي يعيش قطيعة مع الأنساق الاقتصادية القائمة في العالم، فلم يعد بإمكان اقتصاد مهما كانت

هويته أن يعيش منغلقاً على ذاته، وكلمّا توافقت السمعة الاقتصادية للمنتوجات مع الثقة الرمزية في الشعوب الإسلامية، كان ذلك أقدر على تسويقها.

7- خاتمة:

لعلّ الأزمة الحقيقية في الدول الإسلامية هي أنّ حجم العناية بمراكز البحوث الاستراتيجية لا يزال دون ما يطمح إليه هذا المشروع النظري، ومادام هاجس البحث هو تصوّر الإسلام في المستقبل، فلابدّ أن يتجاوز حدود المحاولات الفردية المعزولة إلى طور المأسسة، ويظلّ من مصلحة رجال الأعمال الاستثمار في السوق الرمزية قدر استثمارهم في السوق المالية والاقتصادية؛ لأنّ التنافذ بين هذه الأسواق صار أمراً ممكناً، وآفاق الربح مضمونة في الدنيا والآخرة. وقد يوهم الاتجاه نحو المستقبل بالقطيعة مع الماضي، ولكنه في الحقيقة إعادة تصوّر لعلاقتنا به، وليس من عيب أن نتشبث بالماضي، ولكن العيب أن نعجز عن تكييفه مع الحاضر وتحنيطه، ثم النظر إليه بإعجاب في متاحف ذاكرتنا وأحلام لاشعورنا، فإسلام المستقبل قادر على استعادة قوته متى تخلّص أصحابه من عقدة المحاكاة، وآمنوا بمفهوم التلقّي.

MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm
Mominoun

الرباط – المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هاتف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com